

أيام فخر الدين

....

في لبنان، وبالتحديد في منطقة الشوف وامتدادها إلى الساحل منحت السلطة العثمانية الحق في الحكم للأمير فخر الدين المعني الأول انطلاقاً من سياسة تنويع طرق التبعية وتعيين حكام محليين في مناطق بلاد الشام وفق شروط محددة تكفل سيطرة الباب العالي على الجميع. وقد اختار سلاطين اسطنبول حكام الولايات والسناجق من العائلات العريقة صاحبة الامتداد الجماهيري ضماناً للتحكم بأمور الأهالي والحكام وتحركاتهم. ولكنهم اتّبَعوا دوماً الأساليب الخبيثة لمنع اتفاق أمراء الجماعات والعائلات والعشائر والمناطق والطوائف.. فاتفق من هذا النوع يفلقهم بما يوفره من استقرار وتنمية وقوة رأوا فيها تهديداً لمصالح السلطنة.

وعلى الرغم من سوء السلاطين العثمانيين وبطشهم وسلوكية القتل والتصفية التي مارسوها تجاه بعضهم أخوة وأبناء فإنهم تمحوروا حول سياسة عامة شعارها التوسع وفرض السيطرة وحالة الخضوع لمركز واحد هو الباب العالي للسلطنة وإن اضطرهم الأمر أحياناً إلى الاعتماد على أمراء محليين وزعامات ذات أصول غير عثمانية. فالسلطان سليم الأول بعد معركة مرج دابق ولّى الأمير فخر الدين الأول صاحب المكانة الرفيعة لدى المعنيين وفي بلاد الشوف مانحاً إياه الثقة والحق في حكم تلك المنطقة وتوابعها وسمّاه (سلطان البر) مقابل المبايعة ولكنه طالبه في ذات الوقت بالولاء والخضوع لسلطة الباب العالي.. وعندما حاول الأمير الطّموح توحيد المناطق وتنمية اقتصادها وتطوير قدراتها لتأسيس لبنان المستقل انقلب عليه فأرسل من يقتله في عام ١٥٤٤ بعد قرابة ثلاثة عقود تكونت خلالها طلائع شخصية لبنانية مستقلة متميزة بعنفوان وعزة وطموح وباجتهاد استمر مواجهاً المصاعب بأنواعها لقرون تأقلم خلالها الناس مع الظروف المتقلبة دون أن يتخلوا عن الاستعداد الدائم لصنع الأمجاد.

....

أما شخصية فخر الدين في مسرحية الأخوين عاصي ومنصور فنقرأها في مشاهد هذا العمل الرائع منذ عودته من توسكانيا - إيطاليا، وحتى (أنا بعرف شو النهاية.. بدو يكون في نهاية) رمزاً لبطولة وطنية يفتخر التاريخ والناس بذكرها وعلامة مضيئة لا بد وأن تتكرر لأنه لا قيمة لأرض تخلو من شعب يعمرها ويحافظ على مسيرتها الصاعدة وبنائها وعزتها.

عبر مقدمة موسيقية رائعة تتموج نغماتها كالبحر تتراقص في رتابة موجاته صوراً الحكاية التاريخية الشيقة ينقلها لنا العبقريان رحباني بإبداعية فائقة القدرة وأمانة تحالفت مع المرونة بنزاهة

فخر الدين... أرجاع...
فخر الدين.. هـاي
هـاي هـاي

....

تنقلنا الأوركسترا عبر مدخل تحفيزي إلى دبكة تقدمها المجموعة ووصلة غنائية فائقة الحبوية متحولة لفيروز والكورس لأداء أغنية (دبكة لبنان) من مقام البيات، للبنان في عيده الكبير وفخر الدين تعبيراً عن الحفاوة البالغة:

الكورس: هـاي... يـاه...

ويتبادل شباب وفتيات الكورس في حوار أخذ مع الأوركسترا ومصاحبة إيقاع الأكفّ ونغمات الناي الساحرة المدخل اللطيف:

لا لا لاه	يا لالا	
لا لا لاه	يا لالا	
/ يا لا لاه	يا لالا	يا لالا
يا لالا	يا لالا	يا لالا / (٢)
عطر الليل:	دبكة لبنان بالملقى	دبكة شَيْل السّواعِدْ
	نزلو الفرسان عَ الحلقَة	والسيف الأبيض واعدْ
	ضاق الميدان	
الفرقة:	بيضوفو	
عطر الليل:	والملاعب لان	
الفرقة:	لَسيوفو	
عطر الليل:	طَلُو الغزلان تَيشوفو	والسّاعِدْ يشبُّكُ ساعدْ
الفرقة:	دبكة لبنان بالملقى	

....

في الساحة مجموعة من الفلاحين تغبطهم الحياة الجديدة وخيرها فينشدون أغنية ترعاها الأوركسترا بلحن عذب جميل تتحاور في مقدمته آلة الكمان مع الرقّ والدريكة لتخلق حالة من الطرب العفوي المقترن بمشاعر الزهوّ تضيف على جماله الأنوثة الرقيقة في صوت العنصر النسائي وهو يتحاور مع صوت الشباب تارة والموسيقا تارة أخرى وكذلك الأجساد المتمايلة للفتية والفنيات تناغماً مع اللحن و... :

الجميع: / صرّخ يا ديب من وادي لّوادي
شرّق يا ديب من وادي لّوادي
طلّعت الشّمس
الشمس النّجاي من البّحر الشمس النّجاي من اللّيل
ويّن فيك تغيب ويّن فيك تغيب / (٢)

....

العساكر: يا مهيرة العّلاي فرسانك ناظرين
وان يهذر الشّمالي قوليلن ناظرين

عُرفت هذه الحرب بـ (معركة عَنجر) نسبة إلى المنطقة بين (نبح عنجر) و (مَجْدَل عنجر) التي استدرج الأميرُ فخر الدين الوالي المعتدي إليها ثم قام بعملية التفاف حاصره فيها في جيب بين عنجر ووادي القرن ففضى على قواته وعاد به أسيراً في الحادي والثلاثين من تشرين الأول عام ١٦٢٢.

معركة عنجر الشهيرة رمزٌ من تاريخ الكفاح اللبناني ذوياً عن حرية الوطن سُجّل لفخر الدين في حينه ووثّقته الكتب والسّير ولوحة شهيرة يُحتفظ بها متحف اللوفر في باريس ولها نسخة واحدة موجودة في وزارة الدفاع في لبنان.. كما أن الأخوين رحباني خصّصا المعركة بأغنية قدمتها فنانتنا العظيمة فيروز.

....

ها نحن في الميناء ثانياً وقد ظهر الصيادون وامتألت الأرصفة بالبضائع وبالأسماك وتلألأت الوجوه الفرحة بالخير.

لحن رائع ودولاب بالغ الروعة يدعونا فوراً إلى جلسة حميمة مع البحارة وعمال المرفأ والسوق وشيخ الميناء سيد البضائع والمراكب والسوق يستضيفنا ويستضيف أصحابه في واحدة من أجمل

الصور البحرية وأمتعها.. واختيارات الأخوين رحباني كانت على الدوام مدروسة وشاملة، فالهارموني في الموسيقى وفي أداء المغنين والانسجام مع الموقف والبيئة مرسومان بدقة بالغة لدرجة من الصعب علينا أن نتصور شيخ الميناء فناً آخر غير محمد مرعي أو لغة ومفردات غير تلك التي يسحرنا جمالها وهي مجرد كلمات بسيطة بحرية الطابع.. حتى اللهجة البيروتية هي جزء من جمالية الأغنية التي نستمع إليها من الصيادين وهم يلتقون شيخ الميناء ويحتفلون بالغلة الوفيرة:

الصيادون: /يخزي العيّن
هالمينا بتمليّ العيّن
يخزي العيّن والعيّنين / (٢)

....

ولمّا حاصر عسكر الكجك أحمد المغارة وطالبوا الأمير بتسليم نفسه لم يتردد بذلك توخياً لحماية البلد من الحرب الطاحنة. وطالما أن الأمر أصبح مقايضة فليسلم نفسه بشرط وقف الحرب ودون أن يطأطئ رأسه بل طالب بالذهاب إلى القسطنطينة في موكب يضم كل حرسه وما يحتاجونه من مال و (والابواق عم تغزف قدامنا)..

ورداً على تساؤل الشيخ خاطر والضباط (ليش عملت هيك؟) وإبداء استعدادهم للقتال (خلينا نقاتل يا مير) يصرّح الأمير عما يريده للبنان مسجلاً حكاية قائد بطل ناكراً لذاته نزياً غيوراً على وطنه وشعبه قلماً عرف التاريخ له مثيلاً.

لأ.. ما بدنا نهبط ياللي عمرناه..
واللي بدنا نقولوا قلائه !!
وعرفو بيأئو لبنان كان.. وصار.. وبدو يبقى
لبنان انبني.. وهلق المفاوضة صارت عليّ أنا

ولم يبق للشيخ خاطر سوى شد الرّحال مع رفيق دربه الأمير ومن بقي من زملائه الضباط وقد حلّ اليأس محلّ الأمل (تأخّر الشّي.. الهيئة مش رح بتشتّي). أما عطر الليل فقد كسرت المفاجأة قلبها وكأنها لا تكاد تصدّق أنها في نهاية ملحمة البطولة (معقول تكون النهاية؟؟ وهيك بنيخلصو الأبطال!!)

الأمير: فأذن صار بقدر روح
أنا شو بيهم بقيت أو ما بقيت..
هُويّ بيبقى